البعد الجمالي في الأدب الإسلامي، دراسة أسلوبية لنماذج مختارة من زهديات أبي العتاهية.

The aesthetic dimension in Islamic literature, a stylistic study of selected examples from Abu Al-Atahiyya's ascetics.

الميلود بن ستالة
جامعة غرداية (الجزائر)، mouloudens@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2024 / 04 / 12	2024 / 08 / 13	2024 / 09 / 01

ملخص البحث

الأدب معبر أمين عن التجارب التي يعيشها الإنسان في شتى مناحي الحياة، والأدب الإسلامي مسهم فعال في رسم صورة حية للواقع الإنساني، وهو يستعمل للدلالة على الأدب الذي يكون منطلقه من التصور الإسلامي للحياة، وفي ورقتنا البحثية هذه سنحاول رصد الجوانب الشعرية والجمالية في بعض قصائد شاعر الزهد والحكمة "أبو العتاهية" ولا يتأتى هذا إلا من خلال تحليل البنى الداخلية للمتن الشعري من خلال المنهج الأسلوبي، فهو أقدر المناهج على رصد الظواهر الجمالية في القصيدة، ولعل التساؤل المطروح هنا: ماهي الأبعاد الجمالية والسمات الشعرية في النص الشعري الإسلامي؟ هل أغنى الأدب الإسلامي خزانة الأدب العربي؟

وسنحاول الإجابة على هذين التساؤلين من خلال مستويات المنهج الأسلوبي التي تمكنا من سبر أغوار النص واستظهار سماته الجمالية، بداية بإعطاء لمحة مقتضبة عليه ومن ثَمّ نعرج إلى الجانب التطبيقي.

الكلمات المفتاحية: الأدب، الإسلامي، الجمالية، الأسلوبية، أبو العتاهية.

Abstract

Literature is an honest expression of the experiences that a person experiences in various aspects of life, and Islamic literature is an effective contributor to drawing a vivid picture of human reality. It is used to indicate literature whose starting point is from the Islamic perception of life. In this research paper, we will try to monitor the poetic and aesthetic aspects in some of the poems of a poet. Asceticism and Wisdom "Abu Al-Atahiyya" This can only be achieved by analyzing the internal

structures of the poetic text through the stylistic approach, as it is the most capable of methods to monitor the aesthetic phenomena in the poem. Perhaps the question raised here is: What are the aesthetic dimensions and poetic features in the Islamic poetic text? Has Islamic literature enriched the treasury of Arabic literature?

We will try to answer these two questions through the levels of the stylistic approach that enable us to explore the depths of the text and highlight its aesthetic features, beginning by giving a brief overview of it and then moving to the applied aspect.

keywords: Literature, Islamic, aesthetic, stylistic, Abu Al-Atahiya.

1.مقدمة:

يرى الكثير أن الأسلوبية المعاصرة لا تختلف كثيرا عما جاء به عبد القادر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" حين كتب نظرية النظم العربية، وصاغ الجرجاني آراءه في النظم ولم يكن يبعد عن فكرة اختلاف الأسلوب باختلاف ترتيب الكلام وجعل بعضه بسبب بعض.

وقسّم عبد القاهر الجرجاني كغيره من البلاغيين البلاغة العربية إلى ثلاثة أقسام : "علم البيان، علم البديع ، علم المعاني وإذا ما رجعنا إلى هذا الأخير علم المعاني نجد أن دراساته قريبة إلى الأسلوبية قربا كبيرا فإذا جئنا إلى "التقديم والتأخير" مثلا نجد أن هذا الباب هو بحث عن فهم للصياغة الأسلوبية المتمثلة في صياغة الأسلوب وكذلك عند عرضه للتشبيه والاستعارة والمجاز والكناية وبلاغتها فهو بذلك يقف عند صياغة الأسلوب وغيرها كثير... فعبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم لا يكاد يختلف عن مفهوم الأسلوبية. وفن صياغة الأسلوب ودلالة هذه الصياغة على المعنى فعُدّ عبد القاهر بذلك أول باحث عن بلاغة الأسلوب وألوانه وخصائصه وهذا ما يجعلنا نجزم جزما قاطعا بأن بين الأسلوبية وفكر الجرجاني في النظم صلة قوية ومباشرة"[1]

2. مفهوم الأسلوبية:

1.2.لغـــــة: جاء في لسان العرب لابن منظور: "الأسلوب ، السطر من النخيل، وكل طريق ممتد أسلوب، والأسلوب الطريق والوجه والمذهب يقال: أنتم في أسلوب سوء ، ويجمع أساليب، والأسلوب: الفن يقال أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه والسلب ضرب من الشجر ينبت متناسقا ويطول فيُؤخذ ويُحل ثم يُشقّق فتخرج منه مادة بيضاء كالليف وهذا النوع من الشجر من أجود ما يُتخذ منه الحبال... ولمادة س. ل. ب العديد من المعاني"[2]

2.2.اصـطلاحا: أهم ما اعترضنا هنا هو قضية التعدد في تعريف الأسلوب اصطلاحا فإلى نهاية اليوم لم يجد علماء الأسلوبية تعريفا دقيقا جامعا مانعا لتشعب أوصاله وكثرة مباحثا وتعدد مشاربه. فتعريف الأسلوب إذا – والذي يعد موضوعا للأسلوبية – لم يكن في موضع اتفاق بين رواد الأسلوبية وهذا ما أكد

عليه صلاح فضل بقوله: أنه "ليس هناك تعريفا واحدا لأسلوب يتمتع بالقدرة على الإقناع ، ولا نظرية يجمع عليها الدارسون في تناوله"[3] وهو ما يعني أن هذا المفهوم عائم ومطاطي، ولكن بالرغم من هذا التعدد في مفهوم المصطلح واتساع الرؤى إلا أن هناك مجهودات لحصره نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

أحمد الشايب يعرفه في كتابه " الأسلوب" / الأسلوب بأنه : " طريقة الكتابة أو طريقة الإنشاء، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير، أو الضرب من النظام و الطريقة فيه"[4]، فالأسلوب عنده طريقة الكتابة التي يختص بها مبدع دون غيره.

أما الأسلوبية فهي كما قال مؤسسها شارل بالي: "علم يعنى بدراسة وقائع التعبير في اللغة المشحونة بالعاطفة المعبرة عن الحساسية"[5]، فالأسلوبية تهتم بدراسة العمل الأدبي والغوص في تضاعيف سطوره ومن ثَمّ استنطاق النص للبحث عن مكامن الجمالية فيه.

أما جاكبسون فيعرفها "بأنها بحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولا عن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانيا"[6]، فشعرية الخطاب وجماليته من المرتكزات التي قام عليها تعريف جاكبسون، إذ يرى تميز عمل عن آخر مرده إلى ما يحتويه من جمالية.

ومن الدارسين الذين أثبتوا العلاقة القائمة بين البلاغة والأسلوبية نجد بيار غيرو القائل: "إن الأسلوبية بلاغة حديثة ذات شكل مضاعف إنها علم التعبير وهي نقد للأساليب الفردية"[7]، ولعل التعريف قائم على الربط بين الأسلوبية والبلاغة والتي يراها الكثيرون الدعامة الأساسية التي قامت عليها الأسلوبية.

3. وظيفة الأسلوبية:

البنية اللغوية للنص هي المنطلق الأساسي في عمل الأسلوبية، وتتمثل وظيفة البحث الأسلوبي في فحص العمل الأدبي والبحث فيه عن وجوه الشعرية ، ودراسة الوسائل التي تعبّر بها اللغة، والعلاقات التبادلية، وتحليل النظام التعبيري ، فهي -إذن- تُعنى بدراسة النصوص سواء كانت أدبية أم غير ذلك ، وذلك عن طريق تحليلها لغويا بهدف الكشف عن الأبعاد القيم الجمالية والوصول إلى أعماق فكر الكاتب من خلال نصه، كطول الجمل أو قصرها، وغلبة الأفعال فيها أو الأسماء واستخدام الحروف بطرائق معينة ووفرتها أو ندرتها وتحليل الأصوات اللافتة للانتباه ودراسة الأوزان ودلالاتها...هذا وغيره يعتبر مجال بحث الأسلوبية، يقول عبد السلام المسدي عنها: "إنما تُعنى بدراسة الخصائص اللغوية التي تنقل الكلام من مجرد وسيلة إبلاغ عادي أو أداة تأثير فني، إنما تبحث في الخصائص اللغوية ذات الوظائف الجمالية في الخطاب الأدبي، والتستر الذي يجعل الخطاب الفني مزدوج الوظيفة والغاية، ويؤدي ما يؤديه الكلام عادة"[8]

إذن فأي دراسة أسلوبية قائمة على الربط بين المحتوى والشكل مع المزاوجة بينهما إذ لا ينبغي فصل أحدهما عن الآخر، فهما بمثابة الجسد والروح، وكذلك العمل الأدبي وحدة واحدة متكاملة فلا انفصال للمعنى عن الأسلوب.

4. الدراسة الأسلوبية لقصائد مختارة

كتب الشاعر أبو العتاهية قصائد شتى يحث فيها على الابتعاد عن ملذات الدنيا وزينتها وهوى النفس وميولاتها ويعظ الناس للتمسك بالدين وبما أمر الله، وقصائد الشاعر نفائس وجدانية بثّ فيها من الحكمة والموعظة فبلغ الغاية، فسمي بشاعر الزهد.

وقد اخترنا لدراستنا هذه ثلاث قصائد وقاربناها أسلوبيا قصد تبيين مواطن الجمال فيها وكذا التعرف على شاعرية الشاعر وبراعته في نظم الدرر.

1.4. قصيدة: ذهب المداوي والمداوى

المستوى الصوتي: إن أهم ما يميز الشعر القديم هو موسيقاه، فهي ركيزة أساسية في البيت الشعري، ولعل اهتمام الشاعر بالوزن والقافية والروي له ما يبرره، فهو يدرك ما لهذه الخصائص المذكورة من قيمة فنية أساسية في أبياته، فاختياراته ليست اعتباطا وإنما سايرت القصيدة في مبناها ومعناها، فيحدث التلاحم الموسيقي بين داخل وحدات النص الناتج.

إِنَّ الطَبيبَ بِطِبِّهِ وَدَوائِهِ لا يَستَطيعُ دِفاعَ مَكروهٍ أَتى

0//0/////0///0//0/0/ 0//0/0/0//0///0//0/0/

ما لِلطَبيبِ يَموتُ بِالداءِ الَّذي قَد كانَ يُبرِئُ جُرحَهُ فيما مَضى

ذَهَبَ المُداوي وَالمُداوى وَالَّذي جَلَبَ الدَواءَ وَباعَهُ وَمَنِ اِشتَرى

بنى الشاعر قصيده على بحر الكامل، وهو أحد أغزر البحور حضورا عند الشعراء قديمهم وحديثهم، وسُمّي بهذا "لكماله في الحركات فهو أكثر بحور الشعر حركات، لاشتمال البيت التام منه على ثلاثين حركة"[9]، وهو من الأبحر السباعية و"أحد البحور التي حظيت بنصيب كبير في الشعر العربي"[10]

وقد استعمله الشاعر لسموّ نفسه وكمالها في الزهد، كما أنه يلح على كمال الجوانب الإنسانية في طاعاتها وزهدها فالشاعر رسم لوحات زهدية آسرة سبق معناها مبناها، والأبيات الشعرية بُنيت غالب جملها على الأسلوب الخبري وعلى مخاطبة العقل دون العاطفة، فكان البحر محققا لمآرب الشاعر وغاياته فهو" في الخبر أجود منه في الإنشاء كما أنه أقرب إلى الشدة منه إلى الرقة"[11].

القافية: القافية في هذه الأبيات مطلقة غير مقيدة، فالشاعر أطلق لنفسه هواها وأباح عما يختلج في صدره من غير قيد ولا حدّ، وهي كذلك جزء مهم في البناء الموسيقي الشعري بعد الوزن، وهي لازمة من لوازم البناء الشعري، إذ تمنح القصيدة بعدا إيحائيا ورسما دلاليا، والقافية في أبسط صورها كما يراها الخليل بن أحمد الفراهيدي:" الحروف المحصورة بين آخر ساكنين في البيت مع المتحرك قبل الساكن الأول "[12]، فتكون بذلك على وزن "فاعلن" من خلال الأبيات السابقة، فناسب هذا الوزن وزن كلمة "زاهدٌ" فمقصد

الشاعر تذكير بكلمة الزهد التي ينادي بها في جل قصائده، فعمد إلى استعمال هذا الوزن ليبقى مكررا في أذن متلقيه.

التكرار: يعتبر التكرار ظاهرة فنية تسهم في تشكيل إيقاع القصيدة و التكرار في أبسط صوره تكرار اللفظ بمبناه أو معناه قصد التأكيد والتقرير فيكون حينها مفتاحا للقارئ قصد معرفة الفكرة التي يتمركز عليها الشاعر يقول ابن رشيق القيرواني :"و للتكرار مواضع يحسن فيها و مواضع يقبح فيها ، فأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني ،و هو في المعاني دون الألفاظ أقل"[13]

وقد ظهر على القصيدة عدة حروف كررها الشاعر ومنها حرف الطاء، وهو حرف استعلاء جهوري انفجاري، وظفه الشاعر لتوطّن الزهد فيه من جهة ومن جهة أخرى فالصدح بالأمر تعلق به والصدح لا يكون إلا بحروف جهرية قوية تناسب المقام وهذا ما أداه حرفا: الطاء الذي تكرر أربع مرات، الدّال الذي تكرر سبع مرات.

كما تكرر لفظ الطبيب إشارة إلى الحقل الديني الذي ينشده الشاعر، فالطبيب معالج للأسقام ومطبب العلّات والأوجاع فيستحيل حال المريض من بلاء إلى شفاء .

المستوى الدلالي: يعد المستوى الدلالي أهم المرتكزات التي ينبغي البحث فيها والغوص في تفاصيلها، ذلك أنه يجلي لنا الدلالات والمعاني التي سيقت إلى المتلقي والكيفية التي أبدع فيها الكاتب نصه، ولعل أول عتبة ننطلق منها هي العنوان، إذ هو مفتاح الولوج لعمق النص وفك وحداته وشفراته، والعنوان هنا: "ذهب المداوي والمداوى" والفعل "ذهب" دال على الفناء والانتهاء والانتقال من حال إلى حال يقول الشاعر الأمير الصنعاني:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم *** وبقيت في خلف كجلد الأجرب

فذهب هنا دلالة فناء الجيل الذي عايشه وألفه.

أما لفظ "المداوي" فهو اسم فاعل من الفعل "داوى" ولفظ "المداوى" اسم مفعول من نفس الفعل، والمداوي الذي يطبب مريضه ويسعفه ويعالجه وكذا المداوى الذي أصر على العلاج والشفاء مصيرهما واحد محتوم ألا وهو الفناء ...فالحياة التي يحياها الإنسان ما هي إلا ومضات سريعة ولحظات آيلة إلى زوال، واستعمل الشاعر الاسمان ليبرهن تساوي حياة الناس وانقضاء أجلهم وأن مصير كل إنسان مهما كان هو الموت والمعنى الذي أراده الشاعر هنا هو تذكير الناس ونهيهم عن حياة اللهو والمجون وحثهم على التحلي بالفضيلة وسمو الأخلاق وزهدهم عن ملذات الحياة الدنيا وزينتها.

أما عن إيحاءات الكلمات فقد جسدت روح القصيدة وقلبها النابض، إذ تعدت معانيها مبانيها ورسمت دلالات قوية وموحية مكتنزة بالمعاني الآسرة التي توحي بتعلق الشاعر بحياة الزهد ولعل أبرز الكلمات التي أدت وظيفة شعرية داخل المتن الشعري كلمة "الطبيب" الدالة على علاج الأسقام والآلام وهي توحي بوجود

مرض حسي، ولعل الرابط بينها وبين مقصد الشاعر أنه جعل الطبيب علاج للأمراض الظاهرة الحسية والزهد علاج للأرواح والقلوب.

كما نجد لفظ "ذهب" الوارد في صدر آخر بيت وهو لفظ رفيع المعنى قوي الدلالة إذ يوحي بفناء الحياة والشاعر هنا يدعو لعيش الآخرة وترك زينة الحياة.

المستوى التركيبي: يعالج التراكيب المختلفة الواردة في النص، من ذلك أنواع الجمل والتقديم والتأخير وغيرها كثير...وقد نوع الشاعر بين الجمل الاسمية كقوله: إن الطبيب بطبه ودوائه....وكذا الجمل الفعلية من ذلك قوله: ذهب المداوي والمداوي....والجمل الاسمية في عُرف اللغويين دالة على ثبات الأمر واستمراريته ولعل الشاعر لجأ إليها لثبات أمر الزهد في نفسه وتوطّنه فيه ومن ثم محاولة إيذاعه بين الناس وتحبيبه إليهم وترغيبهم فيه، أما الجمل الفعلية فدالة على التغيير والحركية وهي – على قلتها – أسهمت في إيصال المعنى الذي يريده الشاعر. ومن أمثلة ذلك:

ذَهَبَ المُداوي وَالمُداوى وَالَّذي جَلَبَ الدَواءَ وَباعَهُ وَمَنِ اِشتَرى

2.4. قصيدة: متى تتوب؟

أَلا لِلَّهِ أَنتَ مَتى تَتوبُ وَقَد صَبَغَت ذَوائِبَكَ الخُطوبُ
كَأَنَّكَ لَستَ تَعلَمُ أَيُّ حَيٍّ يَحُثُّ بِكَ الشُروقُ وَلا الغُروبُ
أَلَستَ تَراكَ كُلَّ صَباحِ يَومٍ تُقابِلُ وَجهَ نائِبَةٌ تَنوبُ
لَعَمرُكَ ما تَهُبُّ الريحُ إِلّا نَعاكَ مُصَرِّحاً ذاكَ الهُبوبُ
إِلا لِلَّهِ أَنتَ فَتىً وَكَهلاً تَلوحُ عَلى مَفارِقِهِ الذُنوبُ
هُوَ المَوتُ الَّذي لا بُدَّ مِنهُ فَلا تَلعَب بِكَ الأَمَلُ الكَذوبُ
وَكَيفَ تُريدُ أَن تُدعى حَكيماً وَأَنتَ لِكُلِّ ما تَهوى رَكوبُ
وَما تَعمى العُيونُ عَنِ الخَطايا وَلَكِن إِنَّما تَعمى القُلوبُ
وَتُصبِحُ ضاحِكاً ظَهراً لِبَطنٍ وَتَذكُر ما اِجتَرَمتَ فَلا تَذوبُ
أَلَم تَرَ إِنَّما الدُنيا حُطامٌ تَوَقَّدُ بَينَنا فيها الحُروبُ
إِذا نافَستَ فيهِ كَساكَ ذُلّاً وَمَسَّكَ في مُطالِبِهِ اللُغوبُ
أَراكَ تَغيبُ ثُمَّ تَؤوبُ يَوماً وَيوشِكُ أَن تَغيبَ وَلا تَؤوبُ
أَتَطلُبُ صاحِباً لا عَيبَ فيهِ وَأَيُّ الناسِ لَيسَ لَهُ عُيوبُ
رَأَيتُ الناسَ صالِحُهُم قَليلٌ وَهُم وَاللَهُ مَحمودٌ ضُروبُ
وَلَستُ مُسَمِّياً بَشَراً وَهوباً وَلَكِنَّ الإِلَهَ هُوَ الوَهوبُ
تحاشى ربنا عَن كُلِّ نَقصٍ وَحاشَا سائِليهِ بأن يَخيبوا

قصيدة " متى تتوب؟" من عيون الشعر الزهدي التي وسم بها أبو العتاهية ديوانه، يذكّر فيها بالمصير المحتوم الذي يلقاه كل حي والموت الذي يترصد كل خلق الله.

المستوى الصوتي:

بنى الشاعر قصيدة على البحر الوافر على النحو الآتي:

أَلا لِلَّهِ أَنتَ مَتى تَتوبُ وَقَد صَبَغَت ذَوائِبَكَ الخُطوبُ

ألا للاه أنت متى تتوبو وقد صبغت ذوائبك لخطوبو

0/0//0///0//0/0/ 0/ / 0/0//0///0//0///0//

مفاعلْتن مفاعلتن فعولن مفاعلتن مفاعلتن فعولن

والوافر من البحور وفرة في استعمالها، وسمي لذلك " لوفور حركاته باجتماع الأوتاد والفواصل وهو من الأبحر السباعية"[14] والشاعر قد وجد في استعماله في هذا البحر قد وجد ما يصبو إليه من إسداء النصح وتذكير الناس ووعظهم، ذلك أن الشاعر يشدد في مواطن ويلين في مواطن أخرى فتارة سما مبدأ الترغيب وأخرى طغى أسلوب الترهيب وهو ما يتماشى مع البحر الوافر فهو" ألين البحور وزنا وأكثرها مرونة يشتدّ إذا شددته، ويرق إذا رققته، وهو في كلا الحالين يشيع فيه نغم جميل وموسيقاً عذبة تنساب في أطواء أجزائه"[15] وقد تتبع الشار أسلوب الشدة واللين ما سهل عليه مخاطبة عقول الناس وإرشادهم لأمر دينهم.

أما قافية هذه القصيدة فهيطُوْبُوْ وهي قافية مطلقة غير مقيدة دالة على نَفَس الشاعر الطويل للتناسب القافية مع موضوع النصح والإرشاد والقافية رويها حرف الباء وهو حرف جهوري انفجاريّ مجهور، فالشاعر قد اختاره لقصيدته للجهر بالدعوة والبوح بها ومحاولة إقناع الناس للرجوع إلى دينهم بعد تفشي الانحلال وسوء الأخلاق الذي ضرب عمق المجتمع.

المستوى الدلالي: يعالج هذا المستوى المعاني والإيحاءات التي أرادها الشاعر في قصيدته، وأول ما ننطلق منه هنا هو عنوانها " متى تتوب؟" فالشاعر عنون بالاستفهام ليتأمل المتلقي نص خطابه بإمعان واهتمام كبيرين، فمتى حل الاستفهام بداية كان ذلك مدعاة لفتح باب التأويل ومحاولة الوصول لذات الشاعر لمعرفة المقصد الذي يريده، وحرف الاستفهام "متى" دال على الزمان فالشاعر يستفهم المتلقي الغارق في بحر شهواته وغيّه والمتوطّن في أوحال الرذيلة والفساد عن موعد إقلاعه وانفلاته من براثن نفسه الأمارة بالسوء، وأتبع حرف الاستفهام بالفعل المضارع "تتوب" وقد اختار لمتلقيه الفعل تاب دون غيره ليذكره برحمة الله عليه، فالفعل مشتق من أحد أسماء الله تعالى "التواب" والله يفرح بتوبة عبده كما ورد في الحديث القدسي المعروف فعن أنس عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه قال :" ن تقرَّبَ إليَّ شِبرًا تقرَّبتُ إليه ذراعًا، ومَن تقرَّبَ إليَّ ذراعًا تقرَّبتُ إليه باعًا، فإذا أقبَلَ إليَّ يَمشي أقبَلتُ إليه هَرْوَلَةً "[16]، فالله أشد فرحا بتوبة عبده ورجوعه إليه.

زاوج الشاعر في لغته الإبداعية بين الجمل الحقيقية والمجازية، وتبرير ذلك أن الحقيقة كان القصد منها نقل الحقائق الكونية كما وردت في الخطاب القرآني أو السنة النبوية، أما المجاز فهو باعث على التأمل من جهة وكذا ربط الحقائق الدنيوية بالأخروية من جهة ثانية، ومن جملة المجاز الوارد في القصيدة " وقد صبغت ذوائبك الخطوب" فهي استعارة مكنية قوّت المعنى الذي أراده الشاعر، فمحن الدهر وصروف الزمان كفيلة بقهر الإنسان وتدميره وتقريبه لحتفه.

المستوى التركيبي: يعد هذا المستوى من أهم مميزات التحليل الأسلوبي لعنايته بالتراكيب اللغوية المختلفة الواردة في المتن الشعري.

نوع الشاعر في تراكيبه بين الجميل الاسمية والفعلية مع غلبة الجمل الفعلية في أغلب تضاعيف القصيدة ولعل ما يفسر هذه الغلبة هو تأكيد الشاعر على سنة من سنن الخلق ألا وهي التغير من حال إلى حال وعدم الثبات في هذه الحياة، فلا بد من حزن من سرور ومن مرض بعد صحة ومن فقر بعد غنى ...فلا حال يدوم على حاله.

كما عمد الشاعر إلى استعمال الاستفهام في جمل كثيرة من ذلك قوله:

أَلا لِلَّهِ أَنتَ مَتى تَتوبُ وَقَد صَبَغَت ذَوائِبَكَ الخُطوبُ

وكذلك:

أَلَستَ تَراكَ كُلَّ صَباحِ يَومٍ تُقابِلُ وَجهَ نائِبَةٌ تَنوبُ

وقوله:

أَلَم تَرَ إِنَّما الدُنيا حُطامٌ تَوَقَّدُ بَينَنا فيها الحُروبُ

وأيضا:

أَتَطلُبُ صاحِباً لا عَيبَ فيهِ وَأَيُّ الناسِ لَيسَ لَهُ عُيوبُ

وقد حقق الاستفهام غرضه البلاغي في هذه القصيدة إذ استفز عقل المتلقي وحرك وجدانه للتأمل بغية الوصول لحقيقة الحياة وما بعدها.

كما أدرج الشاعر في متنه أحد المحسنات البديعية الشهيرة ألا وهي الطباق وهو الإتيان باللفظ وضده في الكلام ليحقق تقابلا في المعنى تطرب له أذن السامع كما أنه يحقق يحدث تكاثفا دلاليا وتكاملا معنويا في النص الشعري، ومن ذلك ما أورده الشاعر:

كَأَنَّكَ لَستَ تَعلَمُ أَيُّ حَثٍّ يَحُثُّ بِكَ الشُروقُ وَلا الغُروبُ

وقوله:

إِلا لِلَّهِ أَنتَ فَتىً وَكَهلاً تَلوحُ عَلى مَفارِقِهِ الذُنوبُ

فلفظي: الشروق/ الغروب وكذا : فتى/ كهلا ، قد أثارت الذهن وجذبت الانتباه وقوّت المعنى عن طريق التضاد، كما أبرزت المعنى ووضحته بالتضاد.

أظهر الشاعر كذلك ميولاته الإسلامية وتشبعه بالثقافة الإسلامية، ولا أدل على ذلك من استحضاره للنص القرآني في نصه الشعري، وهذا النوع من الاستعمال يسمى عند النقاد تناصا، وهو بناء نص جديد على أنقاض نص قديم أو نصوص قديمة، فيحقق هذا الاستعمال أبعادا جمالية وإيحاءات وضّاءة وتقوي النص المحدَث خاصة إذا كان الاستدعاء مختصا بالنص القرآني ومن الأمثلة الواردة:

وَما تَعمى العُيونُ عَنِ الخَطايا وَلَكِن إِنَّما تَعمى القُلوبُ

والنص الأدبي تناص مع القرآن الكريم، قال الله تعالى: {فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور}[17].

فالشاعر هنا ربط تذكيره للناس بالنص القرآني ليكون حجة للناس وتأكيدا إلى ما يصبو إليه.

3.4. قصيدة: ناصح مشفق

رغيف خبز يابسٌ ... تأكله في زاويه
وكوز ماء باردٍ ... تشربُه من صافيه
وغرفةٌ ضيّقةٌ ... نفسُك فيها خاليه
ومسجدٌ بمَعزِل ... عن الورى بناحيه
تدرس فيها دفتراً ... مستنداً بساريه
معتبراً بمن مضى ... من القرون الخاليه
خيرٌ من الساعات في ... فيء القصور العاليه
تعقُبها ندامةٌ ... تَصلى بنارٍ حاميه
فاسمع لنُصح مُشفِق ... يُدعى أبا العتاهيه

قصيدة "رغيف خبز" من أجمل القصائد التي تدعو للقناعة والزهد عن ملذات الدنيا وزينتها، وهي كذلك من النصوص الشعرية الأكثر تداولا عن ألسنة الناس لملامستها الواقع وعمق معناها وسهولة مبناها، كما أن موضوعها مدعاة لتعلق الناس بها وعلوقها بأذهانهم، فالقناعة في زماننا يفتقدها أناس كثر ولا صبر لهم ولا طاقة في العيش المقتّر، لذلك لجأ الشاعر إلى كتابة نصه ليكون صالحا لكل زمان ومكان.

المستوى الصوتي: أبيات القصيدة هي من مجزوء بحر الرجز، لأن بحر الرجز يأتي على الصورة التالية:

مستفعلن - مستفعلن - مستفعلن في كل شطر:

رغيف خبز يابسٌ ... تأكله في زاويه

0//0/ 0/ ///0/ 0//0/ 0/0/ /0//

والرجز سمّي "بذلك لاضطرابه، ويقال للناقة التي ترتعش فخذاها رجزاء وإنما كان هذا البحر مضطربا لأنه يجوز حذف حرفين من كل جزء منه، ويكثر فيه دخول الجوازات والتغييرات ويستعمل على أشكال مختلفة فهو أكثر الأبحر تغيرا لا يثبت على حال واحدة وفي هذا ما يسهل على الشعراء أن ينظموا عليه"[18] فكان هذا البحر ملجأ الشاعر للنظم عليه ورصف كلماته، وتزيين ألفاظه.

وجاء البحر هنا مجزوءًا، والمجزوء ما ذهب ثلثه سقطت منه مستفعلن وبذلك تقل كلماته في الشطر الشعري مع غنى في الدلالة والمعنى، وهذا ما لمسناه في قصيدة الشاعر، فقد قلّ بناؤها وكثُر معناها وكما يقال خير الكلام ما قلّ ودلّ وجوهر البلاغة أن تأتي بالقليل من الألفاظ مع سعة في المعنى، فيفوق المعنى المبنى، وأقرب القول إلى عقول الناس مع لامس عواطفهم وخاطب قلوبهم بلين ويسر وهو ما وُفّق فيه الشاعر أبو العتاهية، إذ جنّد كلماته قصد استمالة الناس للزهد عن ملذات الدنيا والقناعة بما قسم الله لهم.

المستوى الدلالي:

عنون الشاعر للقصيدة " ناصح مشفق" وهو عنوان يفتقد مبتدأً، إذ حذفه الشاعر واستغنى عنه واكتفى بالخبر ولعل الحذف في هذا الموضع أكثر بلاغة من الذكر، فكانت غاية الشاعر أبي العتاهية شغل الناس بالخبر أكثر من المبتدأ، فالخبر غرضه البلاغي الأسمى هو الإخبار بحقيقة المبتدأ و"ناصح" اسم فاعل مشتق من الفعل الثلاثي "نصح" وهو دال على الاستمرار كفعله، ومشفق حكمه حكم الاسم السابق أي إنه اسم فاعل دال على الاستمرار في الحكم فالشاعر لم يكتف بالنصيحة لبني جيله وإنما هي امتداد واستمرار لكل الأجيال.

عمد الشاعر إلى استعمال الحقيقة في كل أبيات قصيدته فهي أقرب لعقول الناس وعامتهم، والمجاز أبعد ما يكون منهم ، فالقلوب مصغية لما هو أقرب إليها حقيقة لا مجازا.

جاءت جلّ ألفاظ القصيدة نكرة غير مخصصة غرفة- مسجد- دفترا- خير – عقوبة... وهي دالة على عموم وعلى غير محدد، فالشاعر لم يختص شيئا بعينه، وإنما وسّع نصائحه لتشمل كل منصوح وموعوظ.

المستوى التركيبي:

نوّع الشاعر في تراكيب قصيدته بين الجمل الاسمية والفعلية والظاهر فيها غلبة الجمل الاسمية الدالة على الثبات والاستمرارية، ولعل استعمالها دال على ثبات الشاعر في آرائه الزهدية واستمراريته في دعوته للزهد والقناعة لذلك لجأ للجمل الاسمية، أما الجمل الفعلية الدالة على التغير والحركية فللشاعر نصيب منها في الاستعمال، فتغير حال الناس من حال إلى مآل ألزمه استعمالها لأنها تتناسب ووضع الناس وفطرة الله التي فطر الناس عليها فلا حال يدوم على حاله.

أخّر الشاعر خبر المبتدأ "رغيف" إلى البيت السابع "خير" وكان لغاية عظمى، فيكون المتلقي منتظرا للفائدة الخبر بعد سلسلة كلامية طويلة مليئة بالعبر والعظات وبعدها تتم له الفائدة في نهاية الوعظ حتى لا ينصرف عن النصيحة، فكل تأخير للخبر غايته الأسمى صرف العقول إلى تتبع الكلام كله قبل الفائدة الكلية.

5.خاتمة:

ككل بحث يمكن استخلاص عدة نتائج من بحثنا هذا يمكن إجمالها على النحو الآتي:

- الأدب الإسلامي أدب غني وثري أغنى خزانة الأدب العربي.
- تميز الأدب الإسلامي بنصوصه العميقة ومواضيعه الهادفة، إذ كانت الغاية الأسمى منه تعليمية تربوية.
- تجلى البعد الجمالي وحضور الشاعرية في قصائد ديوان أبي العتاهية، وهي سمة بارزة في الأدب العربي عموما والأدب الإسلامي خصوصا.
- المنهج الأسلوبي منهج تقويم للأعمال الأدبية، إذ يستنطق النص الأدبي ويستظهر شعريته وملامح الجمال فيه.
- النماذج الشعرية المدروسة على قلتها رسمت صورة واضحة حول الأدب الإسلامي، إذ تميز بالصورة الشعرية الآسرة والتعبير الأثيري الباذخ الجمال، واللغة الرصينة، وجمال المعنى وسلامة المبنى.

الهوامش

[1] عبد المنعم خفاجي وآخرون ، الأسلوبية والبيان العربي، الدار المصرية اللبنانية للطباعة، ط1، 1992، ص:5

[2] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة: (س ل ب)

[3] صلاح فضل، علم الأسلوب مبادؤه و إجراءاته ، دار الشروق ، مصر ، ط1، 1419هـ ، 1998م ، ص 95.

[4] أحمد الشايب ، الأسلوب ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ط 1 ،1956، ص 44.

[5] محمد اللويمي، في الأسلوب والأسلوبية ,.مطابع الحميضي، ط1 , ص42.

[6] عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية, الدار العربية للكتاب, تونس، ص33.

[7] بيار جيرو، الأسلوبية، تر: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، دمشق، ط2، 1994، ص09.

[8] عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب ،الدار العربية للكتاب، تونس، 1977،ص 36.

[9] محمود فخري، سفينة الشعراء، علم العروض-علم القوافي-الأوزان المحدثة-شعر التفعيلة، مكتبة دار الفلاح، ط4، 1990، ص100.

[10] المرجع نفسه، ص100

[11] المرجع نفسه، ص106.

[12] د.محمد علي سلطاني ، المختار من علوم البلاغة والعروض ، دار العصماء، دمشق، 2009، ص270.

[13] ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، حققه وعلق عليه، د.عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط1، 2000، ص698.

[14] محمود فخري، سفينة الشعراء، علم العروض-علم القوافي-الأوزان المحدثة-شعر التفعيلة، مرجع سابق، ص37.

[15] محمود فخري، سفينة الشعراء، علم العروض-علم القوافي-الأوزان المحدثة-شعر التفعيلة، مرجع سابق، ص39.

[16] صحيح مسلم، ص2675.

[17] القرآن الكريم، الآية 46 من سورة الحج.

[18] محمود فخري، سفينة الشعراء، علم العروض-علم القوافي-الأوزان المحدثة-شعر التفعيلة، مرجع سابق، ص 79.

قائمة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.
2. ابن منظور، لسان العرب، مادة: (س ل ب)
3. ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، حققه وعلق عليه، د.عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط1، 2000.
4. أحمد الشايب ، الأسلوب ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ط 1 ،1956، ص 44.
5. د.محمد علي سلطاني ، المختار من علوم البلاغة والعروض ، دار العصماء، دمشق، 2009.
6. صلاح فضل، علم الأسلوب مبادؤه و إجراءاته ، دار الشروق ، مصر ، ط1، 1419هـ ، 1998م .
7. عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية, الدار العربية للكتاب, تونس.
8. عبد المنعم الخفاجي وآخرون ، الأسلوبية والبيان العربي، الدار المصرية اللبنانية للطباعة، ط1، 1992.
9. عدنان بن ذريل : النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000 .
10. محمد اللويمي، في الأسلوب والأسلوبية ,.مطابع الحميضي، ط1.
11. محمود فخري، سفينة الشعراء، علم العروض-علم القوافي-الأوزان المحدثة-شعر التفعيلة، مكتبة دار الفلاح، ط4، 1990.
12. منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب ، دار النشر مركز الإنماء الحضاري ، ط1 2002 .
13. عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب ،الدار العربية للكتاب، تونس، 1977
14. بيار جيرو، الأسلوبية، تر: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، دمشق، ط2، 1994